

الحياة في بيروت

على عهد الصليبيين

بقلم الاب لانس اليسوعي

٢

قلنا ان امانة « باروت » الصليبية كان يحميها من جهة الشمال امانة يجبله (جيل) ومن جهة الجنوب امانة سايت (صيدا) . وكان البحر يمنحها من جهة الغرب . فلم يكن لاربابها ، والحالة هذه ، الا ان ينصرفوا لتحسين مقاطعتهم الفنيقية ، تلك المقاطعة التي اختصت بالسعادة على عهد الرومانيين فدعيت « بيريتوس فليكر » ، والتي عمل الصليبيون على تجميلها حتى اصبحت من اجمل مدن الساحل واوسعها ازدهاراً ، على قول ابن الاثير .

على ان اهتمام الصليبيين العسكري ، بل شغفهم الشاغل ، كان بان يحموا حدودهم الشرقية من غزوات عرب البقاع ، وتدخلات عساكر دمشق . واذا انحدرنا بضمة قرون ، نرى المشكلة نفسها تعرض للجذال غورو على عهد فيصل . فالتاريخ يعيد نفسه . وما حدث في زماننا هذا ، حدث لثمانئة سنة خلت ، اذ كان الصليبيون والمسلمون يتنازعون ارض البقاع الحصبة . وان لم يتسكن الفرنجية من الاستقرار في تلك الارض ، فلقد نجحوا بان جعلوا لهم حقاً بثلاث محصولاتها ، وتسلطوا على الطرقات المؤدية اليها من البحر . وقد كان لاتباعهم من الولاة اللبنانيين المعروفين باسراء الغرب كثير من القرى والمزارع في تلك السهول ، يستثمروا ابناء الجبل ، حتى امكن القول بحق ان في البقاع اهرام لبنان ومدن الساحل .

اما مدينة دمشق فقد اذعنت ودفعت الجزية لفرسان الغرب . وكان للصليبيين فيها ممثلون سياسيون وتجاريون ، فضلاً عن الارصاد ورجال الخفية المكلفين ان يطلعوا ارباب الساحل على جميع ما يُجلك من الدناس ورا . جبال انقيلبان . وما يجب الاشارة اليه ان اسراء دمشق كثيراً ما كانوا يتحدون والفرنجية على جيرانهم من اسراء الاسلام كنور الدين مثلاً . الا ان هذه الاتفاقات

الوقتية لم تمنع دمشق من ان تشتغل في الحفا. على هياج رعايا الامارة اللاتينية . وكان اسرع الاقوام تلبيةً لدواعي هذا الهياج دروز لبنان المتوسط . فكانوا يصيغون بالسمع الى حمات الدمشقيين ، لا رغبة منهم في الاسلام ، بل اعتقاداً انهم يرون في دمشق عوناً لهم على الصليبيين . وكان بين المشائر الدرزية اسرة عربية شريفة ، تتصل بقبيلة تنوخ ، وهي اسرة بني بُحْجُر ، امراء الغرب ، الحاكمة في منطقة الشوف الحالية . فرأى سادة « باروت » ان يستصفوا هؤلاء الامراء ، وان يملوهم من خاصة رجالهم ، فاقتطعهم الاقطاعات الواسعة في الجبل ، على ان يقدموا عدداً من رجال الحرب ، ويضنوا ضبط بلادهم والمحافظة على الامن فيها ، ويردوا عن الحدود هجمات الاجانب . فقبل امراء الغرب المقاطعات والاطانات . ولكنهم لم يقاتوا يدسون سراً على الصليبيين ، متفقين مع اعدائهم . وسنعود الى وصف هذه السياسة المتتوية « الالعبة على الجبلين » ، كما يُقال ، والتي لم تفقد تقاليدھا في سورية حتى اليوم .

في سبيل تلافی هذه الاخطار ، اعترم بقديون الثاني ملك اورشليم ، في نحو السنة ١١٢٥ ، ان يبني حصناً على جبل كلافان ، في « ارض كافية الحصب » ، على ستة اميال من باروت . « ١ » اما موقع هذا الحصن فدرجج تعينه في مرتفع دير القلعة قرب بيت سري . وهو مركز يوافق المسافة المذكورة ، فضلاً عن انه يدير تسمية ذلك المكان « بدير القلعة » وهو اسم لم يشرح احد حتى اليوم على طريقة ارفق من هذه . وقد تأكدنا ، بما عرفناه عن بلبسك التي لا تزال خرائبها تدعى باسم « القلعة » ، ان من عادة المحاربين ان يحولوا اسوار الهياكل القديمة الى حصون وقلاع . على اننا نرى في اسر « دير القلعة » صوبية واحدة وهي ان تلك النواحي لم تشتهر بخصبها . ومما يكن من اسر قاننا نظن ان الملك بقديون لم يبن قلعة كبيرة بل حصناً صغيراً . اما آثاره فلا شك انها دخلت ، مع كثير من آثار الميكل القديم ، في بناء الدير الحالي وفي ابنة قرية بيت سري ، حيث لا يزال بعضها يظهر حتى اليوم .

واذا استثنينا هذا الحصن ، لا نجد ذكراً لاي بناء او اية قلعة صليبية في

الجبل ، داخل امارة باروت . ولو كان شيء من ذلك لما سكت عن الاشارة اليه صالح بن مجي ، مؤرخ امراء العرب . على اننا نعرف في الساحل بضع قرى كالناعمة ، ومزداسية ، وجونية كانت محصنة ، او على الاقل محاطة بالاسوار^(١) . وذلك كي تتمكن من مقاومة القرصان وارباب المراكب المصرية .

اما العساكر التي كانت تحت تصرف امير « باروت » فكانت قليلة العدد ، ضئيلة الخطر . ولا شيء اعجب مظهراً ، ولا اغرب تركيباً ، ولا اقل وحدة وتألقاً من جيوش الفرنج الشرقية . كل الشعوب وكل الديانات المتمازجة المختلطة في الشرق كانت تجد ممثلين لها في تلك الجيوش ، كما هي الحال تقريباً في ما ندعوه اليوم « جيوش المستعمرات » . ولم يكن في تلك الفرق الا عدد قليل من الصليبيين بين قواد ومنظمين . حتى يمكن القول ان الاطوار كان وحده افرنجياً ؛ اما ما يلاؤه من الانفاز ، وصغار الضباط ، فكانوا من ابنا البلاد على اختلاف ملتهم ونحلهم . وكان على امراء العرب ان يقدموا عدداً منهم لم يكن يتجاوز على ما نظن الثلاثين نفرأ ، وهو العدد الذي يفرضه بعد ذلك على الامراء انفسهم ؛ امراء بني ايوب وامراء المماليك ، كما يذكر المؤرخ صالح بن مجي . ولا ترى ما يدفع الى الظن انهم قدموا اكثر من ذلك الى امير « باروت » الفرنجي .

اما سائر العساكر فكانوا من المسلمين المدعوين « توركوبول » (Turco- poles) ، من شذاذ الطرق والمتشردين تضيق بهم الحياة بين السكر واللهم ، فيؤجرون شجاعتهم وبجاريون في جيش من يضمن معيشتهم . وكان في تلك الجيوش ايضاً فريق من الارمن والموارنة . واذا ما حُمّ اخطر ، كان سكان بيروت انفسهم ، يحملون السلاح ويشتركون والمسكر النظامي في الدفاع عن المدينة . وهو امر يفرض استعداداً عسكرياً وتدريباً حزيباً . يشهد بذلك ما قام به السكان وحدهم ، سنة ١١٨٧ ، اذ قاوموا جيش صلاح الدين في غياب الحامية العسكرية ، فاوقفوه مدة ثمانية ايام^(٢) .

(١) راجع بمقتا [Mél. de la Faculté Orient. de Beyrouth, I, 248, 249]

(٢) Hist. Orient. des Crois. I, 692

ومع انه لم يكن من تلك الجيوش فرقة دائمة الأهمية قلعة المرفأ القليلة العدد، فان تكاليف الساكر كانت باهظة . على ان امراء «باروت» كانوا اغنياً . لحسن الحظ . وكان من موارد خزائهم الضرائب العادية ، والحراج المفروض على غير المسيحيين ، وبدل الطريق . وفوق كل ذلك كانوا يتكلمون على رسوم التجارة المحلية ، وواردات الجمر . فنتج ان الصليبيين كانوا لا يألون جهداً ، ولا يتراجعون امام اية تضحية في سبيل تعزيز علاقاتهم مع الدول الاجنبية . كانت مرفأى المملكة اللاتينية العظمى عكاً ، فصور ، فطرابلس ، وكانت عكاً في ذاك العهد تنازع الاسكندرية ، بل تنازع القسطنطينية نفسها . وكانت سائر مدن الساحل الفينيقي ، تنافس بيروت منافسة قوية لكون مرفأها افضل وارسع من مرفأ بيروت . على ان سياسة امراء «باروت» الرشيدة ودهاءهم المتواصل وجهودهم الدائمة جعلت لبيروت مركزاً حناً في تصدير البضائع الشرقية المطلوبة بالحاح في اسواق اوربة . من ذلك الحرير ، والكتان ، والقطن ، والرجاج ، والقاشاني . وان من هذين الصنفين الاخيرين آثاراً قوية على تقلبات الاحوال فوصلت الى زماننا حيث تباع بالذهب ثقلاً بثقل . وكان من تلك الاصناف ايضاً الافاويه والابزار المتنوعة ، والمعاقير ، والاطياب ، وسكر القصب ، والقرقة ؛ وفوق كل ما تقدم البهار ، ذلك الصنف الذي بلغ من ارتفاع ثمنه في اوربة انه كثيراً ما قام في العقود التجارية مقام النقد ، وان العروسات كنَّ يتطلبن ، في جملة مطالبهن ، ان يجدن كياساً من البهار في هدية العرس^(١) . ويشهد بنفاسة هذا الصنف وغلا سعره اذ ذلك ما يذكره صالح بن يحيى من ان الجنوية نهبا للبنادقة المقيمين في بيروت البهار المخزون في خانهم . وقد بلغت قيمة المنهوب عشرة آلاف دينار^(٢) . وهو رقم يفيدنا في معرفة ما كانت عليه من الاهمية المعاملات التجارية في اسواق مدينتنا .

كان المركز الاول بين التجار الاوربيين في بيروت لاهالي جنوى او الجنوية . وذلك ان اسطولهم كان قد ساعد على فتح المدينة فلزم ان يُقطعوا

Schaube, *Handelsgeschichte*, 163, 164 (١)

(٢) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٥٨

تلك ارضها وان يعفوا من رسوم الجمرک ومن سائر المكوس . ولا يخفى ان الجمهوريات الايطالية في القرون الوسطى كانت ترى في الحركة الصليبية وجهتها الاقتصادية خاصة . وكان الجنوية من اعظم اولئك التجار سيمياً في سورية ، ورغبةً في بسط معاملاتهم على جميع المناطق ، مما قد نفعه بالانانية والاستئثار لو كان من المعقول ان نطلب من التجارة صفات التجرد والتفاعة . وكان البنادقة قد استأثروا بالتجارة في القسطنطينية . فكان اذاً من مصلحة الجنوية ، بل من حقهم على زعمهم ، ان يتأثروا بتجارة السواحل السورية ويتصرفوا على كل منافسة . حتى لقد يمكننا ، اذا ما نظرنا الى هذا التطاحن الاقتصادي ، ان نصوب اليهم ما قامت به « اميرة » ادمون رستان من لوم عنيف لاولئك الصليبيين الذين راحوا يفتشون عن الارباح المادية فحسب ، اذ قالت ^١ :

يا من تفتشون عن الارباح في فلسطين ، اجعلوا
على صدوركم ، لا اشارة الصليب ، بل رسم الدينار الذهبي .
انكم لتتنون في الحروب الصليبية . ريش ما تفتلون ا
فان المجد للقرنجة في ذلك . ولكم الفائدة المادية .

على ان هذا الاستئثار بالتجارة الجانح الى الاحتكار الفعلي لم يكن ليروق امراء باروت ، اذ كان يحدد نطاق المعاملات في مدينتهم . فعملوا شيئاً فشيئاً على التخلص منه بان اخذوا يسهلون على البنادقة المعاملات التجارية في بيروت . وكان التجار الايطاليون يتسعون ، في جميع مدن الشرق ، باستقلال يكاد يكون تاماً عن السلطات المحلية . فقد كان لهم كنائسهم يخدمها اكليروسهم الخاص ، وخاناتهم الخاصة ، وحماماتهم ، وافراتهم الخاصة ايضاً . وكان يحكمهم اولاً رئيس منهم يدعى الفيكونت ، ثم حل محله فنصل بلادهم ، الذي كان يفصل في المنازعات الناشئة بينهم ، فهو حاكم وقاضٍ معاً . الى غير ذلك من الخصائص التي كانت تؤلف « امتيازات اجنبية » تامة ، قبل عهد فرنسوا الاول بثلاثة قرون . وكذلك كانت امتيازات تلك الجمهوريات الايطالية في الامبراطورية البيزنطية .

فكان ان الجنوية استفادوا من هذه الامتيازات ، واخذوا يعلنون من جهتهم على تعزيز تجارتهم ، وعلى تقوية احتكارهم لاسواق سورية ، حتى دفعتهم « انانيتهم المقدسة » الى خنق التجارة الفرنسية مع الشرق . ففقدوا ، في متروية القرن الثاني عشر ، اتفاقات خاصة مع مرافئ جنوبي فرنسا كنيويليه ، وأرل ، وسان جيل ، ترمي الى حصر اعمال البحارة الفرنسيين بنقل زوار الاراضي المقدسة او الى اجبارهم على استئجار المراكب الجنوية . ولكن لم يطل الحال حتى اخذ اولئك البحارة يعملون على التملص شيئاً فشيئاً من هذه الشروط الشديدة . وقد ساءدهم امراء بيروت في ذلك ، فانالوهم الاعفاءات الجبركية واعطوهم الحق بفتح قنصلية في بيروت . وكان اول من استفاد من هذه الامتيازات اهالي مرسيلية سنة ١٢٢٣

ولقد كان من حق امراء الفرنجة ، وقد ائندقوا على الجوالي التجارية تلك الانعامات والامتيازات الكثيرة ، ان يطلبوا منها ان تقوم ببعض الواجبات . فكان على الجوالي ان تشترك والسلطة في الدفاع عن الاراضي المقدسة بجزياً وجزياً براكبها وبن تعولهم على حسابها من الماكر . ولا يخفى ان هذا الامر كان يخفف كثيراً . من تكاليف الجيش في الدول الفرنجية . فضلاً عن ان حركة التجار واستثمار اموالهم وتعداد مشاريعهم كانت من عوامل ازدهار المرافئ . ولقد استفادت بيروت من ذلك فائدة عظيمة حتى اصبحت « المدينة الوافرة النني » « *pulentissima civitas* » كما يقول من زارها في ذاك العهد من امثال جان دي ويرزبورغ (Jean de Wirzbourg) . وكان هذا اللقب صدىً لذلك اللقب القديم « المدينة الوافرة الجمال » « *Splendidissima civitas* » الذي منحه مدينتنا في القرن السادس ، الامبراطور يوستينانوس العظيم ، والسائح الپليزني المجهول الاسم .

كانت الضرائب التي سنتها الادارة البيزنطية ثقيلة الوطأة على سورية ، ولاسيا بعد ان اجتاحت اطرافها الحروب والغزوات الفارسية والبدوية مدة قرن كامل حتى انهكت قواها . ثم جاء الفتح العربي . ومنذ ذاك الحين لا

اعلم هل من منطقة اخرى قاست ما قاسته سورية من استئثار الحكام بمواردها الحيوية ، استئثاراً منظماً واستغلالاً مرتباً يجعل الحاكم او ممثليه ان يهتوا قبل كل شيء بما يحصلونه من المال وبما يتناولونه من « الطعمات » . وهذه الكلمة نفسها ، التي كانت جارية الاستعمال في الانشاء الاداري اذ ذاك ، تدل على ما تزل بسورية من مصائب الضرائب وجباياتها ولاسيما منذ عهد العباسيين ، تلك « الدولة المباركة » ، كما كانوا يدعونها رسياً . ولقد بلغ من هذا الاستئثار الفاحش ان احد حكّام سورية ترك لبيت المال في بغداد ، عند انتهاء وظيفته ، مبلغ ٣٦٠'٠٠٠ دينار ، وهو مبلغ لا نبعث فيه عن الحقيقة ، اذا حوّلناه اليوم ، بالنظر الى القيمة الاصلية والى اختلاف اسعار المعيشة ، الى مبلغ ٣٦٠'٠٠٠ ليرة استرلينية . اما هذه التضحية المالية من قبل الوالي فكانت جارية تعرف « بالمقاسمة » وغايتها ان تجعل للدولة نصيباً من ارباح الوالي فتسكتها ، وتبذر نوعاً ما يقوم به هذا من طرق غير مشروعة في جمع المال . على انها لم تكن لتفقر الوالي المذكور ، وقد حصل اضافة اضافة . واذا انتقلنا من عهد العباسيين الى عصر الفاطميين نجد ان احد ولاة دمشق ، من مشرّدي الاتراك ، ترك بعد وفاته مبلغ مليون دينار . وقد بلغ ما رُجد من ثروة خاصة في خزانة آخر سلاطين المالك ، على اثر انتصار سليم الاول ، مائة مليون دينار ، اكثرها نتيجة ما امتدّه هذا السلطان من اموال السوريين حتى انه وضع المكوس على جامعي جبل البقر .

اما على عهد العثمانيين فلدينا تقرير لتصلية البندقية من اواخر القرن السادس عشر ، يقول ان مقاطعة سورية كانت تباع في استانبول « بثمانين الى مائة الف دوقه » . وان « وظيفة الدقردار (اي امين الصندوق العام) كانت تُسرى باربعين الى خمسين الفاً . ووظيفة القاضي ارخص قليلاً . وكان جميع الموظفين يموضون في مدة قريبة كل ما يبذلونه في ثمن وظائفهم . فان الباشا كان يسلم (scortica) كل المقاطعة ، والدقردار يسلم الامراء وموظفي المكس ، والقاضي يسلم جميع من يقع تحت يده . » وكان الجزاء ، التاعس المذكور ، يستخرج كل سنة من مقاطعة عكا عشرة ملايين فرنك لحسابه الخاص .

وقد «سحب» من امير لبنان وحده ١٠٠٠٠٠٠٠٠ فرنك في خمس سنوات ، على قول ثولني . ولم يبلغ ما جمعه في ولايته مدة خمس وعشرين سنة اقل من نصف مليار .

ويقرب من ذلك حالة سائر الولايات . فان عبيدي باشا ، والي حلب ، جمع في خمسة عشر شهراً ، كما يذكر ثولني ايضاً ، « ١٠ ملايين ليرة ، فارضاً الرسوم على جميع ارباب المهن حتى منظفي الغلايين . » وان من عاشوا على عهد عبد الحميد يؤكدون ان هذه التقاليد ظلت جارية في سورية . حتى يمحلتنا الظن ان في سورية نهراً من الذهب جارياً دون انقطاع . والا فكيف احتملت الف سنة من الفوضى والنهب على جميع الاساليب . وقد تفتى سورية اليرم ، هذا الماضي المؤلم ، منصرفاً الى التأمل المعزن بصعوبات الحالة الحاضرة ، والى التشاؤم بالمستقبل ، غير منتهية الى ان مصائب الحرب نفسها لم تفقرها الا جزئياً بالنسبة الى غيرها .

اما سرّ هذا الثنى فصدره ، على ما نرى ، في موارد البلاد الطبيعية ، وفي سركرها الجغرافي ، وفي ما ورثه ابناءها عن اجدادهم الفنيقيين من مقدرة على المعاملات التجارية ، وجلد في متابعتها ولاحقتها . وهم لا يطلبون ، في سبيل تحقيق هذه المقدرات ، الا حكومة بصيرة مضادة . وقد وجدوا هذه الحكومة في اسراء باروت الصليبيين .

كان اولهم الامير دي كين (Foulques de Guines) فابتدأ التنظيم . واتي بعده من اجتهد في متابعة عمله . الا ان هولاء لم يعرفوا حتى اواخر القرن الثاني عشر اذ انتقلت الامارة الى جان ديبان (Jean d'Ibelin) . كان هذا من اشرف ممثلي الفرسان النصارى في الاراضي المقدسة ؛ وكان سيد ايلن (وهي يمنية القديمة جنوبي يافا) واصوف ، وكونت يافا والزامة ، ومن قراد الملكة اللاتينية ، وحاكم قبرص . على انه معروف خاصة في تواريخ الصليبيين باسم «امير باروت الشيخ» ، وباروت المنطقة التي كان يفضلها على سائر اقطاعاته . وقد دافع عنها جهده عندما هاجمتها جيوش فريدريك الثاني . وهي مدينة ازدهارها الاقتصادي ، اذ عرف ان يتدرج اليها تجار اوربة واموالها . وكذلك

رفع اسوارها ، ورتب قلعها واتم طرق تحصينها حتى جماعها من « اجمل قصور العالم » كما تقول ملاحم القبرصيين (*Gestes des Chiprois*) . وقد مثل في ملاحم الصليبيين ، دور نسطور الحكيم في الالباذة ، فدعاه فيليب دي نوفا را « المتكلم الرائع الحكيم » . وكان فوق ذلك ، وقبل ذلك ، رجل عمل وجد تروعه عظمة الفن وفخامته ، فباشر ترميم بيروت على رغم التكاليف المادية الثقيلة ، لان المدينة كان قد خرب اكثرها على اثر فتح صلاح الدين الموقت . وقد اشار هو نفسه الى ذلك بقوله : « لقد تسلت المدينة عندما استعادتها النصرانية ، وهي مهذمة حتى ان التامبية والاستبالية وسائر امراء سورية تركوها . وقد اصلحتها واعدت بنائها بفضل صدقات النصارى وعملي انا . » والآن ، أو ليس من الاجحاف بحق التاريخ ان لا نرى شارعاً في بيروت يحمل اسم هذا الامير العظيم ؟ ...

وهناك جان ديبلن آخر نبع من هذه الاسرة وعرف بقدرته الحقوقية عاملاً في تأليف المجموعة الشهيرة « بقواعد اورشليم » . وهو ابن اخ الامير الكبير ، ويدهره : « عمي الشيخ امير باروت » . وقد ملك بعد الامير الشيخ المذكور ابنه باليان ، ثم حفيده جان ديبلن الثاني . ثم ورثت الامارة ايزابيل ابنة جان ديبلن الثاني . وقد تزوجت اربع مرات ، ولكنها لم تُرزق ولداً ، فتركت الامارة والالقب لاختبها ايشيف التي اصبحت « سيدة باروت » . فاقترنت اولاً ببيرونفروا دي مونتفورد (*Honfroi de Montford*) . وقد حفظ صالح بن يحيى فرماناً اصدره هذا الامير سنة ١٢٨٠ باقطاع اقطاعه امراء الغرب . وعلى عهد الاميرة ايشيف ، في شهر تموز ١٢٩١ ، سقطت بيروت في يد المسلمين . وكان امراء بيروت الصليبيون يسكنون النقود . الا ان الائمة التي وصلت الينا من نقودهم قليلة جداً ، واكثرها نحاسية ، عليها كتابات باللاتينية او الفرنسية . وقد رُسم عليها من الجهة الاولى صليب ، ومن الجهة الاخرى باب او برج « مَرَض »^{١١} . (لها صلة)

(١) اطلب في ذلك Schlumberger, *Numismatique de l'Orient Latin*, 118, 119